عبد الكريم غلاب

أزمة البطل

2024

أزمة البطل

أخفت الابتسامة الجميلة المعبرة عن الوجه الصبوح المتغضن في شيخوخته وشيبته. تجلى الغضب في العينين المشرقتين الطافحتين بالذكاء «تهدج الصوت الحنون» تمرد على همسه :

- لا لم تفشل الحرب، ولم تهزمني الجيوش الجرارة والمتحالفة، ولكنها... وسكن طويلا وهو يحدق في وجوه مخاطبيه، يملأهم التقدير والاحترام، والتعلق بحديث تملأه الحكمة، يلفه فكر متفتح حذر متحفظ. مهابة تجلل وجها لا تقتحمه عينان، لا أحد يستطيع أن يسأل عما بعد : لكنها...

ساد صمت رهيب، غرق في خجله ذاك الذي كان جريئا في المجموعة الحاضرة فتحدث عن تنمر الجيوش الجرارة المتحالفة. لم ينطق بكلمة الهزلية. أدرك البطل ما وراء حديثه فتجاوب مع الكلمة وهو ينفيها. وبقيت «حقيقة» ما بعد : «لكنها» معلقة في انتظار حديث آخر.

والذاكرة حية يقظة لا تنام.

وتزحف إلى الذاكرة صورة هذا الجنرال المدلل في قصر الملك المتمكن من القوة العسكرية التي يزحف بها على القبائل يحتل أرضها ويهين رجالها، وينشر الرعب بين سكان الريف، وهو يتطلع في سياق انتصاراته إلى أن يحتل أراضي زعيمة قبائل الريف ومنبع سادتهم وأحرار أبطالهم، الجنرال الذي عرف كيف يجعل جباه الحاكمين تنحني لكبريائه يخترق الريف

في اتجاه بني وريا غل يعتز بتكريم من الملك والكنيسة والسلطة العسكرية، يمكن لسلطة الاحتلال من أصقاع الريف.

- لن يتركك أبناء الريف تذلهم.

وينذر التغير بالاستيلاء على بقاع أنوال.

الأمر جد كل الجد يا إخواني في الجهاد - قال البطل في ثلة من زعماء القبائل - المغرب أصيل صولجانه وفي لحريته وكرامته وإسلامه، والريف حصن هذا الوفاء - الأطلس ما زال يحمل السلاح في وجه أكبر الدول عتوا في الأرض لن نترك لهذا الطاغي أن يزداد طغيانا في أرضنا.

وارتفع متخاذل يهمس «الحكمة» في تخاذله :

- ولكنه أكثر عتادا وأوفر رجالا، ووراءه دولة حاقدة تسنده وتمده بالخبرة والسلاح.

- يا سيدي الفاضل كلنا يعرف ذلك. ولكن معنا صوت الحق والإيمان بالله «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»، أتؤمن بالله. إذن تأكد أننا منتصرون أو مستشهدون.

واختلى البطل إلى نفسه، والمقدمون من رجاله يعدون العدة للمعركة على مشارف أنوال ؟ كان مقعده على صخرة عاتية تظلها شجرة برية طافحة بالأغصان والأوراق الخضراء، بعيدا عن صخب المخططين والمنظمين والمتأهبين.

- حقا عتاد الجنرال أكثر من عتادنا. السلاح الذي غنمناه لا يكفي لمواجهة السلاح الذي أسعفه به الملك وحكومة الاحتلال. رجالي لم يتدربوا بعد على استعمال السلاح الذي غنمناه من العدو.

- والماء والغداء ؟

المجاهدون ألفوا أن يكتفوا بالخبز والتين. المجاهد لا يتطلع لغير الشهادة أو النصر. كل رجالي متحمسون تغمر قلوبهم إحدى الحسنتين. موقعنا الأعلى. الجنرال فرض عليه جهله بطبيعة الأرض أن يكون الأسفل. كل رجالي يجاهدون من أجل الوطن. كل رجاله يقاتلون من أجل ماذا ؟ يسوقونهم إلى الموت، وهم لها كارهون، عدوهم ينقاد إلى الجهاد، وهم عنه راغبون.

هذا منطق المعركة.

التحق به أخوه يعرض عليه رأيا :

- بعثت بمجموعة إلى حجر الجبل تغور الماء الذي سيحتاجه العدو.

- رأى حكيم لم تكن في حاجة أن تخبرني به. الفضل لعبقرية رأيك، وتبلغ رجالنا أن يتناوبوا على النوم في ليلتهم.

العدو قد يهاجم ليلا. أكثر خوفا من الظلام وجهلا بمواقع الأرض ومساربها. فما أظن أن يقتحمها ليلا. ولكنها الحرب، التوقع سيد خططها.

وجد الجنرال الطريق معبدا للمسيرة بحيويته إلى أهدافه.

وجلس الأخ الأصغر إلى أخيه وقائده يستمد منه الرأي والخطة والتوجيه العسكري. أدركته بعض هموم الرجل، وهو يتحدث كما لو كان يتحدث إلى نفسه :

- ظنوا أن وفاة الوالد.. بعد أن دبروا موته - هي نهاية المعركة، نهاية الريف.

- أنت الوالد بعده، وسيفرق ظنهم في المعركة التي سيخوضها المجاهدون بقيادتك.

- ومع ذلك.

عرف وزير الحربية طريقه إلى القائد. سار يخترق الأرض المعشوشبة يقذف بقدمه حجرة بعد حجرة إلى ، صخرة. يعرف أن القائد لا يتغيب، لجأ إلى الصخرة الضخمة التي تظللها شجرة التين يفكر ويحتمل ويقرر. إلى جانبه كان يجلس محمد على صخرة أقل ضخامة مستظلا هو الآخر بأغصان الشجرة الوارفة، يتبادلان الحديث في هدوء كأنهما غير مقدمين على معركة طاحنة.

- السلام عليكم

لم يرفع يده بالتحية إلى صدغه، ولم يضرب حذاء قدميه بالآخر، كما يفعل أي ضابط، هن ألفوا أن يعاملوهم، حينما يقفون أمام ضابط أعلى رتبة. فقدماه محشوتان في «بلغة» واسعة. وجلبابه القصير الذي لا يعدو طوله ركبتيه إلا قليلا.

ورأسه ملفوفة بعمامته الخضراء على غرار ما يلبس كل المجاهدين.

- عليكم السلام. جئت في وقتك. ولو أنك لم تكن لتترك الميدان فلعل المعركة توشك أن تفتح أبوابها. النار على أبواب الانطلاق فيما يبدو فلتكن حذرا...

- جئت لأستشيرك في موضوع يبدو لي أن له ما بعده. هل نبدأ بإطلاق النار وقد رأيناهم يستعدون لذلك، أم نتركهم يبدأون ؟

- يمكنك أن تتصرف حسب استعداد العدو، وتأهبه للمفاجأة، الأخبار أكدت لي أن أعظم جنرالاتهم صال وجال في المنطقة. احتل كل المراكز في طريقه إلى أنوال. لعل أوداجه انتفخت من كثرة الأراضي التي احتلها، والقبائل التي سيطر عليها فخضعت...

- ولكننا مستعدون له يا سيدي محند. وقد نظمت المجاهدين كتائب على رأس كل كتيبة قائد، لا تنقصه الشجاعة ولا الحكمة والحذر والحيلة. الجنرال سيلفيستر سيقود معركته، وهو واثق من نفسه. إن تقدير الملك الفونسو ونساء نصر تلعب في رأسه. تراه من الذين يحسبون الحرب في الريف كقيادة كتيبة تؤدي التحية العسكرية للملك. لا تهمنا انتصاراته - في طريقه إلينا. لم يخض فيها معركة، وانما سار بين قبائل خذلهم الخوف، وقلة ما بأيديهم من سلاح.

- أحيانا تقول كلاما ينقصه الصواب. القائد المتميز لا يستهين بخصمه ولو كان أعتى منه قوة، نعرف أنه يقود فيلقا كبيرا من المقاتلين، نعرف أنه طلب مزيدا من السلاح ومزيدا من المال، فاستجابت حكومة مدريد لمطالبه، وهو عدو قديم أعرفه، وكان والدي يعرف عنجهيته وصلفه وخبثه واحتقاره للريفيين. فهو لذلك يطمح أن ينتصر في معركة مصيرية.

ابتسم وزير الحربية «بودراع» - كما لو أنه يحتقر كل عنجهية الجنرال وصلفه، قال :

- نعرف عدونا، ولا نستهين بمنزلته في الدولة. تأكد يا سيدي محند أنه سنفقدها اليوم.

- بفضل شجاعة المجاهدين وتضحياتهم.

- وبفضل قيادتك ووجودك حينما تظهر بينهم.

كان اليوم قائظا والبطل ينتقل بين الخنادق التي يختفي فيها المجاهدون فيها استعدادا لمواجهة العدو، يشجع جميعهم ويرشهم، ويوضح أن المعركة ستكون شرسة وعنيفة ويحضهم على الاحتفاظ بالسلاح كلما أمكن ذلك. وكان المجاهدون يتحرقون شوقا إلى القتال وقد سيطروا على مشارف أنوال. تملكت القبائل المجاورة حمية دينية وطنية قبلية.

- كل شيء إلا النصراني، بلادنا قاومت النصارى كلما هبت علينا رياحهم. يحكى أجدادنا أنهم تركوا على مشارف مليلية وسبتة قبلها آلاف المجاهدين. ولكن عقاب الله لنا، لأننا لا نصلي، الصليبيون يحتلون المدينتين رغم أرواح الشهداء.

التهبت المنطقة كلها بروح الجهاد والتضحية وارتفعت أصوات الشباب منهم بالهتاف :

- اللهم صل عليك يا رسول الله. الجنة للصالحين والنار للكافرين...

عاد الثلاثة يتقدمهم القائد البطل على جواده. أخذ كل من محمد وبودراع مكانيهما من الكتائب المتراصة. كل منها يترأسها عريفها على استعداد في يقظة وحذر وشوق للظفر في معركة المصير. سار البطل على جواده يتفقد الكتائب ويقف على رأس قائد يسأله ويرشده ويشجعه. في مكان ما من آخر مفرزة

تستند إلى مرتفع صخري لاحظ القائد أن ثغرة غير ذات سعة مكشوفة، فكر :

قد تأتي رياح العدو فيها على غرة. وانطلق بفرسه سريعا نحو قائد المعركة ينبهه إلى الثغرة التي يجب أن تحرسها ثلة من المجاهدين.

كان وهو يقترب من الميدان يستعين بالمنظار الكبير للتعرف على استعداد العدو.

يتكشف تنظيمه وقوته السلاحية والبشرية، ويتعرف من بعيد على الضباط الذين يؤطرون الجيش الاسباني من بذلاتهم وقبعاتهم المتميزة حاول أن يتعرف من بينهم على الجنرال فلم يهتد إليه.

- إنه واثق من ضباطه وجنوده، سيحضر بسيارته العسكرية في ساعة الصفر لإعطاء الأمر بإطلاق النار.

نادى البطل على القائد وزير الحربية حتى إذا لحق به يستمع إلى تعليماته :

- نترك للجنرال «شرف» البداية بإطلاق النار. الرصاصة الأولى من بندقيته والثانية من بندقيتك. ذلك تدعيما لعجبه وثقته في نفسه. لا تمهلهم بعد الرصاصة الأولى.

لا يستهينوا بقدراتهم على الغدر والانتقام، فهو شجاع مهما يكن مغرورا متكبرا... أعرف أنك لا تحتقر عدوك. فقد يكون لذلك تأثير سلبي على المجاهدين.

الجبار لم يبق على أي أرض مر بها أو إنسان وقع في طريقه إلا سحقه.

الريفيون أصبحوا يكنون له، للجيش الاسباني كل حقد أخشى أن يتجاوزك التنظيم العسكري والتحكم في المجاهدين. لقد حرر المجاهدون كثيرا من المراكز والمناطق - لجأ بقواته - الآلاف من جنوده - إلينا أجهد قواته المحاربون منا.

حينما طلب المفاوضات لم نكن مغرورين رغم أننا أدركنا يأسه. غدره أكبر من يأسه. قلبي مع وفد المفاوضات الخمسين الذين اغتالهم. ولكنها الحرب... الحرب مع عدو لا يعرف شرف الكلمة، ولا يقدر شرف الراية البيضاء التي رفعها. أبطالنا سينتقمون للذين اغتالهم غدر العدو.

وجمع البطل القواد الذين يشرفون على مقاتلة العدو.

أقدر جهودكم وأحترم عملكم التنظيمي. ولكني أجد الجبال والوهاد والسهول تبعث بآلاف الناقمين الذين قتل الجنرال آباءهم وأبناءهم. المعركة لم تخرج من أيدينا، رغم أنها أصخب

معركة شعب الريف. ما أراه من هموم شعبي كبير على الجيش النظامي الاسباني يذهلني، ولكنها الحرب. دعوا المجاهدين يحققون النصر على جيش الاحتلال.

- يا سيدي : قد يفقد السيطرة على المعركة. قال وزير الحربية.

وضحك البطل ضحكة مريرة وهو يجيب :

- حينما كنا نحرر المراكز التي احتلها الجنرال واحدا إثر الآخر. لم نفقد السيطرة على المعركة، معركة أنوال اليوم في نهايتها.

حينما حررنا أوبران وسيدي إدريس. قضينا خمسة أيام في المعركة النظامية. كان المقاتلون منتظمين. نقتلع منهم المركز شبرا شبرا، وكان النصر في أيدي الصابرين.

نحن اليوم في معركة لا يحكمها التنظيم. ولكن لا ينقصها التحكم والدهاء إلى جانب حرية المقاتلين في أن يخلصوا ثأرهم من عدوهم.

حينما أقسم الجنرال أن يشرب الشاي في أجدير كانت آذان الريفيين تستمع إلى قسمه، وكانت ضمائرهم تؤكد له أنه لن يحظى بالحياة في تلك الساعة، لا أنا ولا أنت نستطيع أن نتحكم في ضمائر الذين أقسمت قلوبهم وشجاعتهم ألا تمكنه من ذلك.

كان البطل مضطربا وهو يشهد أن المقاتلين يفدون من كل مكان ليقضوا على العدو في بلاط أنوال، ويعود إلى نفسه يحدثها : إنها الحرب.

واشتد حر شهر يوليو، وزفرت جهنم زفرتها الكبرى. لن يتحرر جيش الاسبان من بلادتهم العسكرية، انهم لم يقيموا

وزنا للأراضي الوعرة المسالك، ولا طقس الصيف بين الجبال، فكان الحر والعطش والجوع والإنهاك الجسدي والنفسي، كانت كلها تند صفوف المجاهدين ضد الضباط الاسبان الفارين. افتقد الجنود الرقابة والأوامر والانضباط فأخذوا يفرون من المعركة. وانقلب المجندون المأجورون على رؤسائهم وعلى الجنود النظاميين نعمل فيهم سلاحهم. حاول الجنرال مرة أخرى طلب الهدنة فرفع الراية البيضاء.

- لا لن نثق بالغادرين - قال البطل - طالبناهم بالسلام والجلاء عن بلادنا، فأبوا إلا الحرب. وما نريدها حربا. نحن في حاجة إلى السلام لنشر الأمن والتعليم والقانون و الشريعة والنظام، ونشيد مراكز العمل في بلادنا، وننمي أراضيها الزراعية، الحرب ضد كل ظروف التنمية والسلام وسيادة الشريعة والقانون - ولكنهم أبوا أن يتركونا وشاننا. لا نريد بهم

وببلادهم شرا. ولكننا لا نقبل أن يعاملوننا كالعبيد يحتلون بلادنا ويستعبدون مواطنينا، ويقتلون شيوخنا وشبابنا وأطفالنا.

طفح ضميره ألما ولسانه يردد : إنها الحرب.

اختلط الحابل بالنابل ولم ينج من فرقة الجيش العتيدة في بلاط أنوال إلا الفارون الذين تاهوا بين الهضاب والغابات والمسارب التي لا تهديهم إلى البحر. وبحث فريق من قادة المجاهدين بعد نهاية المعركة الضارية عن الجنرال الذي قاد آلافا من جنود بلاده إلى حتفهم فوجدوا جثته مضرجة بدمائها إلى جانب سيارة مزقت أشلاءها رصاصات نافذة. امتدت يد شاب من القادة إلى وسام الجنرالية الأكبر، فانتزعه من بذلته، وذهب مسرعا به إلى البطل، يقدمه كشهادة على نضاله ضد عدو طالما أهان قبيلته وعائلته.

تقبله البطل. لم ترتسم على شفتيه ابتسامة الظفر.

كان مهموما بالنصر المبين، وهو ينظر إلى ميدان المعركة من بعيد يخيم عليه شبح الموت البشع تختفي منه الإنسانية وطعم الحياة.

في غمرة الألم واضطراب الضمير الإنساني امتطى البطل فرسه ليجوب أرجاء ميدان المعركة. كان قبل ساعات يزدهر بالحركة والحيوية والتأهب. تغمر آلاف المجندين فيه حمية الحقد وشهوة الانتصار وطموح المجد العسكري. والآن وبعد ساعات فقط يخيم عليه شبح الموت. تتوزع فيه الجثث والأشلاء، تفيض من جوانبه برك دماء.

قال لنفسه، والفرس يتعثر ولا يكاد يستقيم أوده - ما كنت أريد هذه معركة عسكرية شريفة - ضحك بالرغم عنه لكلمة «شريفة» - كان يمكن أن تنتهي بالغالب والمغلوب لا بالإبادة المطلقة. أرادها العدو، وأرادها الشعب كذلك. تساءل : هل كان

في مقدوري أن أوقف المهاجمين من المواطنين الذين نكبوا ؟ احتلت أرضهم وأهينت كرامة قبائلهم. منحهم العدو الفرصة فانتقموا، حتى سيلفيستر كان جنرالا شجاعا. احترمت شجاعته، رغم وقاحته. أهان أبي..؟ فتلك مهمته كقائد عسكري لقوات الاحتلال، تخرج من بلاط الملك لا من مدرسة التربية الإنسانية. ما كنت أريد له هذه النهاية. الأبطال يموتون واقفين...

عاد بفرسه، وقد ازداد حزنه وامتلأت نفسه أسى وحسرة. أمر باجتماع مجلس الحرب بدا على وجوه البعض نشوة الأنصار، وفرحة الهزيمة الساحقة للعدو.

بدأ كلماته هامسا، كما لو كان يتحدث إلى نفسه، اقترب وزير الحربية بأذنيه ليستمع. يشعر بأن الأمر يهمه أكثر من الآخرين.. شخص واحدا كان يركبه غم شديد لم تلبث شفتاه أن تتحركا همسا بآيات من القرآن، وهو العم عبد السلام. وارتفع

صوت البطل تباعا عيناه تتجولان بين الحاضرين، تتوقفان قليلا عند وجه وزير الحربية :

- تعتقدون أننا حققنا نصرا مبينا. كنت سأكون مثلكم لولا أني قمت - قبل حين - بجولة في بلاط المعركة. لا أكتمكم أني متشائم. يشعر كثير منا بالفخر، قد يكون على حق. وقد يكون على غير حق لو أعرته بعض فكري. كان ينظم لمعركة نظامية. سيلفيستر كان هو الآخر ينظم جنوده وضباطه لمعركة نظامية و.. رابحة... (ارتفع صوته إلى درجة الغضب) أنتما معا على درجة واحدة من الخطأ، ولو النصر كان بجانب أحدكما والهزيمة والموت كانا بجانب الآخر... (وسكت حتى ظنوا أنه أنهى حديثه - استأنف)... إننا في الريف بين قبائل مست كرامتها، يملأ كيانها شباب ورجال عاش بعضهم واستشهد الآخرون. كان عليك - كما كان على سيلفيستري - أن نقيما وزنا لهذه الحقيقة، فلا يخرجن الزمام من بين يديك حتى لا يحارب

كل من لا تنظمه في صفوف قواتك. ولا يغامر هو بمعركة يضع بيضه كله في سلتها. هزم في أوبران وسيدي إدريس وغيرها، ومع ذلك دخل معركة أنوال كأنه المنتصر. ضباطه فروا، جنوده هاموا على وجوههم لأن كثيرا منهم يحاربون بغير هدف. ما شأني بالريف ؟ سمعت هذه الكلمة من أحد الضباط يتحدث إلى زميل والحرب في بدايتها. لا أحد من جنوده وضباطه كان يطلق الرصاصة، وهو يدافع عن وطن أو عن مواطنين أو عن استقلال قطعة من أرضه، هو وحده «سيلفيستر» كان يتقدم بعشرات الآلاف كحطب جهنم ليزداد مكانة في القصر، ولتقرأ من أجله الصلوات في الكنيسة، إنها أنانية المحارب. ولا شيء أدعى إلى الهزيمة من أنانية حامل السلاح.

ساد صمت في القاعة، كان البطل يستعيد نفسه وكأنه ينظم أفكاره. لم ينبس أحد بكلمة، هم جميعا يعرفون أنه سيستأنف :

- كم أحترم تنظمك وقدرتك على فرض الانضباط، غير أني آخذ عليك بعد نظرك عن الحقيقة. الحرب قوامها التوقع. ولعلك لم تتوقع ما حدث، لو توقعت لكان تخطيط آخر، لحققنا النصر بهزيمة العدو، لا بإبادته، مسؤوليتنا لا تقف عند الانتصار، ولكن عند جناية عواقب النصر حتى النهاية. النهاية هي أن ترغم الاسبانيين، بصراع معقول، على الخروج من الريف. أتدرون في ماذا أفكر (صمت ليترك لهم الجواب الداخلي عن سؤاله) أفكر في الأندلس (صمت) لا تستغربوا فسأوضح لكم الأمر. الاسبانيون لهم شعور بالكرامة ويملكهم حقد كبير وغيظ أكبر. لا ينسوا الثأر ممن أذلهم، خاضوا معارك حربية في أوروبا وفي الجزائر وفي أمريكا. أفلحوا في بعضها وانهزموا في أخرى، ولكنهم كانوا يعتبرونها بطولية، والبطل منهم يرمي بسلاحه أمام خصمه اعترافا بخسارته المعركة إزاء خصم ند. ولكنهم في الأندلس ظلوا يحملون حقدهم على ظهور

أجيالهم ثمانية قرون تكونت فيها دول ودالت أخرى، انهزموا في مواقع ساحقة أمام يوسف بن تاشفين، واستمرت دول الإسلام ثمانية قرون، لكن حقدهم لم ينطفئ أوزاره... حتى استردوا الأندلس جميعها وطردوا الأندلسيين - وكثير منهم اسبان اسلموا وأصبحوا مواطنين في الدولة الإسلامية، (صمت غير قليل من الوقت، استأنف) الحقد انتصر أخيرا. لست مختصا في التاريخ لأبحث الأسباب الجانبية، ولكن النتيجة تهمني. لو تساكن المسلمون أكثر مما فعلوا مع النصارى، لسحقوهم في كل معركة خاضوها معهم، لما حافت بهم الهزائم المتوالية حتى أخرجوهم من آخر معقل لهم غرناطة.

وسكت البطل - وهو يعبث بعمامته، يعيدها إلى وراء، ويمس مقدمة جبهته بأصابعه، ثم يعيدها إلى مكانها - يجيل نظره في رجال الحرب، واحدا واحدا كأنه يستطلع في وجوههم التساؤل

والحيرة، إلا محمد، فقد كان يحرك رأسه إيجابا، تنبئ عيناه الحادتان عن فهم عميق لحديث البطل - واستأنف :

- ... لعلكم أدركتم كل ما أريد أن أقول. ولكن علي أن أضيف : الاسبانيون بعد هذه الهزيمة المدمرة المهينة ربما في كل تاريخهم - وعلى مبعدة أميال من بلادهم سيحملون حقدهم على أكتافهم لينتقموا. لن تكون أنوال هي نهاية حرب الريف، لست متشائما، سنحرر بلادنا... (وسكت طويلا وهو يفكر) ثم رفع صوته واكتست رنته طابع الحزم وهو يضيف) إن لم يكتب لنا هذا الشرف في حياتنا فسيكتب للأجيال بعدنا، ولكن علينا أن ننتظر هجمات الانتقام الحاقد. قد يضطرب الوضع في اسبانيا نفسها. قد يتحمل الملك الفونسو نفسه مسؤولية رميه بجنراله المدلل في معركة الإبادة، ولكن الانتقام الحاقد سيطفو على سطح كل الأحداث.

- لنا أصدقاء من الاسبان أنفسهم، هل سيحتفظون لنا بهذه الصداقة بعد نكبة أنوال - ومن الفرنسيين والانجليز. بعضهم سيعترفون لنا بأننا حققنا نصرا مبينا. ولكني أصارحكم بما في ضميري : لا أثق بأي من هؤلاء، بعضهم من المخابرات الفرنسية، وبعضهم من المخابرات الانجليزية، وكثير منهم من المخابرات المزدوجة. أثير هذا الموضوع الآن أمامكم، وفي هذا الظرف بالذات لأبادلكم آرائي، فسيتوافدون كالجراد، معظمهم سيهنئوننا بالنصر المبين.. كثير منهم سيحاولون اكتشاف مواطن الضعف فينا، وفي مقدمتها استعدادنا للصلح والسلام، بعد أن حققنا جزء من أهدافنا. لذلك يجب أن نفكر واقعيين : النصر الساحق لا ينبغي أن يبطرنا. نحن دعاة سلام منذ اليوم الأول، إذا جنح خصمنا إلى السلام بشروطنا، وتتخلص في الخروج من بلادنا، فنحن أول من يمد يده لذلك. كأصدقاؤنا

الأجانب يجب أن يعودوا بفكر متفتح عن نياتنا الحسنة في الصلح والسلام.

أطلت عليكم في الحديث لأن النهاية الفاجعة لمعركة أنوال نتطلب المزيد من القول :

- هذه المعركة الفاجعة سترعب جيراننا الفرنسيين، سيفكرون جيدا في موقفهم الحذر منا. حذار أن يفلت الزمام من إحدى القبائل، التي يبطرها النصر، فتمد اليد بخرطوشة واحدة إلى المنطقة التي تحتلها، علينا أن نتوقع أن الاسبان قد يحاولون الاستعانة بالفرنسيين، أو اجتذابهم لمناوشة الريف، قفوا لهم على حدود غير مضبوطة، لنكن حذرين ولنظهر صداقتنا لهم. وعلى الأخ محمد أن يواصل رسالته في باريس، لا يضره أنه لم يجد آذانا صاغية، نحن في حاجة إلى أن نبعد

شرهم. ولكن نكبة أنوال ستجعل ليوطي يخاف من تسرب حرب الريف إلى جبالة، إلى المناطق القريبة من الريف.

بعد صمت غير قصير حرك يده مؤكدا، وكأنه يشير لرفاقه إلى أن يحفظوا ما في لوحهم :

- ... ستكتشفون أن من بين الضحايا الاسبانيين كثير من الجرحى، وأن الأسرى كثيرون. أوامري الصارمة أن تمنعوا أيا من مقاتلينا أو من مواطنينا العاديين أن يجهز على جريح أو يقتل أسيرا. إننا مسلمون، والنبي في إحدى معاركه مع قريش خطب في جيشه وجيش الأعداء وقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وفي كل معاركه كان يأمر بألا يجهز على جريح ولا يؤذي أسير. يكفي الأسير جبنه، وعدم قدرته في الدفاع عن نفسه.

وأحب أن أقول لوزير الحربية إن السلاح الكثير الذي تخلف في المعركة يجب أن يجمع في المخازن. لا أحد من غير المقاتلين

يمكن أن يحمل سلاحا. حذار من الفوضى بعد هذا النصر، الفتنة أخطر ما يواجه القبائل غير منظمة.

ونطق العم في غير مقاطعة :

- قال الله تعالي : والفتنة أشد من القتل ...

- مسؤوليتنا، بعدما تحقق من نصر، أكبر من مسؤوليتنا قبله.

وقف البطل مؤذنا بنهاية الجلسة.

استمر البطل

الذاكرة لا تموت.

في غرفة باخرة متهاوية تسبح فوق شبح بحري أحيانا تحنو على ركابها يتجولون على ظهرها أو يأكلون أو ينامون، ويثور البحر في وجهها احيا فتغضب، تترنح، تحاول أن تزور أعماق

البحر فيصدها موج منقذ، يؤوى سكانها الأربعون إلى فرشهم في انتظار الذي يأتي. لا خيار : البحر أمامكم والبحر وراءكم. والمصير محتوم. ليس أمامكم، أمَامَكُنَّ، الا الدعاء والا الصلاة. كثيرا ما كان البطل يلجأ إلى غرفته المتواضعة. لم يعاشرا البحر. كثيرا. مليلية وشاطئ الريف إذا اضطر مرة أن يغازل البحر لكن فرسه يعرف الجبال والكتبان والوهاد، يألف أمواج البر العاتية، وعليه أن يألفها بحرية صاخبة، كانت الباخرة ترحل به - والعائلة - إلى أرض لا يعرفها، إلى قوم لم يحلم أن يراهم، إلى منفى كان يرجو أن يكون في بلاد عربية مسلمة. غير أنه ليس هو الذي ينفي نفسه عن بلاده وقومه وجهاده. أنه خصمه الأقوى وأشد قساوة، أنكى حقدا.

ابتسم لنفسه وهو يساير الذاكرة الواعية :

- ترى لو ظفرت به أكنت اتركه في الأرض التي يستقر بها ويحسبها بلاده ؟

أجابت الذاكرة في عتاب :

- يداك أو كتا وفوك نفخ.

عب من كأس قهوة بدأ يألف شربها منذ قدمها إليه طباخ الباخرة. كانت الباخرة في ساعات رضاها. كان هو في لحظة استرخاء، في الباخرة البئيسة المتهاوية لا تملك إلا أن تذرع المسافة الضيقة على ظهرها جيئة وذهابا، أو تسترخي على فراشك إلى أن يدركك النوم، تحدثت الذاكرة ؟

- العدو الاسباني جريح، جريح بعد أنوال... والذين تمرسوا على الحرب في البر والبحر حتى أصبحت جزء من حياتهم يتحملون الجراح حتى إذا اندملت حملوا البندقية مرة أخرى،

رغم ما يظهرون من استسلام. دعوا إلى السلم، ما لبثوا أن عادوا إلى الحرب. لقناهم دروساً أخرى في الحرب من خلال انتصاراتنا، في كل ميدان اختاروه لمعركة عرفوا أخيرا أنها خاسرة.

توقفت الذاكرة قليلا، ثم أخذت تملي :

حذرت طويلا من عدو آخر يتربص بنا. طرفا عداوة لا يحتمل أحدهما عداوة الآخر.

تلك طبيعة الحلف الاستعماري.

- اكتب شهادة الآخر لو تم لك النصر النهائي... ؟

لم يستغرب السؤال.

- لم أخض غمار الحرب لأحرر الريف. لم يخض موحا وحمو

الحرب ليحرر الأطلس. الريف والأطلس جزآن من بلاد واسعة عاشت حرة مسلمة مزدهرة طيلة التاريخ.

- ... بدا العدو الأكبر مهاجمة حوافي الريف لينقذ شريكه في الغنيمة. بل ليصد تحريرا محتملا يأتيه من الريف مع ذلك حذرت من أن تنطلق رصاصة خارج بلاد الريف، صرحت أبلغهم رغبتي في السلم والتعاون معهم. كان ذلك هدفي، ولكنها العداوة المحكمة. والتحالف الاستعماري الديني، والخوف من العمل لتحرير المغرب كله.

ضحك والذاكرة تضيف :

- في السباق يحاول الخصم أن يسبقك قبل أن تسبقه، الفرص لا تتكرر، أتراهم يثقون بك ويغفلون عن الواقع ؟ والذين كانوا يترددون عليك كأصدقاء. ألم يكونوا مبعوثين

من مؤسسة المخابرات، هي التي تقرر الحرب، ولا تجنح إلى سلام.

- ليس المهم المخابراتية، لم أكن أتق بأحد منهم - على كثرتهم - من انجليز واسبان وفرنسيين.

- ولكنك كنت تكلفهم بمهمات، وتفوض لهم أن ينقلوا شروط مفاوضات ؟

- وكنت استفد من خبرتهم، وأبعث بهم إلى مقام لا يصل إليها قدم ريفي.

وتذكرت الذاكرة القولة المشهورة، الحرب خدعة...

- ... كانوا يحاولون أن يخدعوني. وكنت أخدع بهم، سنوات الحرب جميعها فقدت فيها الثقة أحيانا حتى من أقرب المقربين إلي، تعلمت من الذين صادقونا في الحرب، ومن الذين خانوا

عملنا الكبير، النكبة الكبرى كانت هي الخيانة. وثقت في عملي وعمل المجاهدين، ولكني...

واحتدت أعصاب البطل، لفظ مخدعه حيث كان يسترخي مطمئنا إلى هدوء البحر. ارتفع صوته في الغرفة المقفلة، وهو يؤكد كما لو كان يجادل معاندا :

- ليست الهزيمة التي سببت هذا المصير، ولكنها... ولكنها الخيانة... الخيانة، من يستطيع أن يعد الأشخاص والجماعات والقبائل التي تخلت عن الجهاد، ولحقت بالعدو مستسلمة، بل منها من حمل السلاح ضد المجاهدين، حتى لم يبق معي إلا الصامدون المؤمنون، كثيرون منهم قاتلوا بعد النهاية، استشهدوا - أو كثير منهم استشهد - ولكنهم وهبوا أرواحهم لله فقدموها مؤمنين صابرين. أولئك - وعشرات الآلاف منهم - هم الذين صنعوا حرب الريف.

عادت نفسه فاطمأنت، تعلم من النهاية أن ينتصر على الغضب، أن يتذكر الله. أن يقول لنفسه :

- هناك من يدبر الأحداث، الذي يدبر أمر الحياة كلها.

وعادت شعلة الذاكرة تنبعث من أغوار الأحداث.

- يوم بدأ العدو الأكبر يزحف على أطراف الريف. «ورغة» «بني زروال» تأكدت أنه قادم، قلت لكل القواد ها هو ذا يتحرش بنا، ويدفع بنا إلى حمل السلاح ضده، فلا يخدعكم ما حققتم من نصر في أعماق الريف، تأكدوا أن المنهزم من العدوين سيقبل أقدام المنتصر منهما. تأكدوا أننا لن نستطيع أن نحارب في جبهتين : ثانيتهما لا نقوي عليها.. لم تتذوق نصيبها من انتصاراتنا نحن شعب قوتنا في شجاعة أبنائنا وروح الجهاد والوطنية فبهم. لا نملك ما يملك العدو الأكبر من عتاد ومقاتلين، يستخدمهم من كل جهات الإمبراطورية، حتى من بلادنا. حذار

أن تقع في الفخ الذي بدء ينصبه. سنكون في مواجهة دولة خرجت من حرب عالمية منتصرة، وعندها مرشال، يضع في مقدمة رسالته التهدئة. لم يتقبل هزائمه في الأطلس، وما يزال يعاني. يدفع دولته أن تتحمل مسؤولية حرب طاحنة في إطار الحلف الاستعماري.

... لا. لا... نمكنه من أحلامه.

ما تزال الذاكرة تجادل تنطلق من ضمير ظل واعيا منذ تحمل المسؤولية. منذ أهالوا التراب على قبر الوالد المتزعم لحركة الريف.

- ولم يكونوا يضعون تحذيرك موضع التنفيذ ؟

- لا... لا تظلم أحدا، الحرب ليست لعبة شطرنج، كانت القبائل التي وقعت تحت الضغط، التي اقترب منها جيش العدو

الأكبر تستنجد بنا. لا ننس أن بعض أبطالها حاربوا بجوارنا. قدموا دماء أبنائهم فداء للإسلام والوطن، أفيجوز أن نتركهم لمصيرهم مكتوفي الأيدي أمام العدو.

- كنتم بين كماشتين.

- لا ... بين واجبين. واجب الوفاء لبلادنا وبني قومنا، وواجب التقية حتى لا يهيج علينا البحر، اخترنا أن نسند المجاهدين من بني قومنا، رغم إدعاء العدو أن المنطقة من أملاك حمايته، اخترنا الفضيلة الجهادية : الطريق الأخطر.

- نجح العدو في استدراجكم للكارثة... ؟

- لا ليست كارثة... خسرنا معركة، ولم نخسر المبدأ ولا الهدف.

وفكر البطل طويلا في هذا الذي يقول، فكرة صائبة هذه التي تملكته وهو يقوم باللمسات الأخيرة على الاستسلام.

وكان السؤال الذي ما يزال يلح :

- كيف خسرتم معركة، ولم تخسروا الحرب.

- المعركة التي خسرناها أنهيتها بنفسي. تلفت حولي - بعد أن استقدم العدو الأكبر مارشالا جديدا يقود المعركة. في تاريخه معركة (فردان) انتصرت فرنسا في الحرب العالمية، وكان أحد الذين حققوا لها النصر. لا يهم أنه انتقم من غريمه فسحب منه الإقامة العامة وقيادة الجيش ومعركة الريف، وأركبه الباخرة إلى مرسيليا مهزوما نفسيا وتاريخيا، فتلك معركة بين خصمين، ليس أخطر من أحدهما إلا غريمه، ولكن الذي يهمني أن المارشال الجديد كان مصرا على أن يحقق نصرا يسجل في تاريخه العسكري لإنقاذ الإمبراطورية. كنا نواجه عدوا لا يؤمن بغير الحرب الساخنة. كل ما قدمناه في المفاوضات السلمية كان يجيب باسم حكومته عنه بأن استمرار الحرب إلى النهاية

الساحقة هو الحل. كبدناه خسائر وهزائم لن ينساها تاريخه العسكري ضجت حكومته والرأي العام السياسي والشعبي في بلاده من الخسائر البشرية والسلاحية والمالية التي تحملتها، في حرب كانوا في غنى عنها، لأنها تهم طرفا آخر، ولكن الضباط المحترفين - والمارشال منهم - الذي يقودونها، ولا يصلون نارها بذواتهم، ويوم ينتصرون تضع حكومتهم وسام العار على صدورهم. وإذا ما انهزموا فالجيش، والمرتزقة هم المنهزمون.

وعادت الذاكرة تستفز البطل وقد عاد إليه هدوؤه النفسي فاستف من قهوته الباردة، يستطيبها باردة وساخنة :

- في المعركة الفاصلة، وقد اتسعت دائرتها، ودخل في مواجهتكم عدو، يملك من القوة البشرية والعتاد ما لا سبيل إلى دحره.

أجاب، وهو يستعيد المواقع الكبرى والأخطاء الصغرى.

- من لا يخطئ في حرب خمس سنوات، سبقتها سنوات التأهب مع عدوين لا يؤمنان بغير الحرب سبيلا لبناء الإمبراطورية ؟ كنا نحارب لاقتلاع هذه الإمبراطورية من تاريخهم الاستعماري والعسكري، كانوا منظمين ممولين مؤهلين بالعتاد والبشر. كان مجاهد منا يقابل ألفا منهم مدفع عندنا يواجه ألف مدفع عندهم ؟ أرض المغرب كلها ميدان في إمكانهم استخدامه. كنا محاصرين في رقعة ضيقة، لا نتحرك منها إلا إذا هزمنا فرقة من جيشهم، حتى ندير حربا كهذه كنا نتلافى الأخطاء تعترض طريقنا في كل قرار نتخذه. من المعجز أن نحارب قوتين إحداهما أمامنا والأخرى خلفنا.

زادت الذاكرة في الإلحاح الجدلي :

- من الأخطاء التي تذكر فلا يغفرها الذاكرون أن الجيش الريفي كان على أبواب مدن قلم يقتحمها : مليلية، وزان، فاس... كان احتلالها يحقق نصرا مدويا عالميا، يزيد في القوة المعنوية للمجاهدين، وفي الهزيمة والارتباك لمعنوية للعدو، ويساعد على البحث عن حل عادل للقضية الوطنية في المغرب.

ضحك البطل والذاكرة تثير التخمين في الذين يذكرون ولا يغفرون، عادت به الذكرى إلى الجدل الذي دار بين القادة وهم في قلب المعركة :

- التخطيط الحربي قد يناقش عسكريا بين رجال الحرب والقواد المخططين من العسكريين. وطنيا كان يجب تحرير هذه المدن من الاحتلال العسكري. ما تبعات ذلك ؟ ستلتقى إرادة الشعب المستعبد بإرادة الجيش المحرر، ويتغير وضع الحكم، ويصاب المحتلون بالهزيمة. وتعلو كلمة الله. من الناحية

العسكرية سيصبح على جيش التحرير أن يتحول إلى إدارة حتى لا تقع الفوضى، بعد اندحار إدارة الاحتلال. وربما لم يكن الجيش الريفي مستعدا ليكون جيش إدارة. والمواطنون في المدن المحررة ألا يديرون المدينة وينظمون أنفسهم ؟

- لو كنا في السويد أو انجلترا لوضع السؤال. ولعل الجواب عنه لن يكون إيجابيا.

وصمت البطل كأنه لن يتكلم مستفزا الذاكرة أن تتذكر :

ورغم كل هذا المنطق الذي قد يقبل الرفض. رغم هذا المنطق الذي يقول : إن عدم احتلال مليلية كان رغبة في عدم خلق تعقيدات دولية. وأن احتلالها قد يخلق حربا بحرية لا استعداد عسكريا لنا إليها وأنا الآن نادم على ذلك بمرارة. أعتقد أنه كان خطأ جسيما. لقد خانتني يومئذ البصيرة السياسية الضرورية، وكل ما أعقب ذلك كان نتيجة هذا الخطأ. وأعتذر

لنفسي بالقول : من مِن القادة العسكريين لا يخطئ، لقد كنا في حرب ضارية تتجاذبنا آلات الاحتمالات. وليس معنى هذا أنني لا أتحمل المسؤولية.

- ... أرأيت لو دخل الريفيون المدن التي كانوا على أبوابها، أكانت القيادة تستطع حفظ الأمن، أمن المواطنين على أنفسهم وبيوتهم وغذائهم وأموالهم ؟ ارجعي إلى ما كنت أتحدث به في بداية الحركة : إن مهمة حركتنا ليست طرد المستعمر فحسب، ولكنها تستهدف الارتفاع بالسكان والقبائل إلى أمة متحضرة واعية متعلمة قادرة على التعايش في سلم دون انتقام ولا نقمة. لو دخل مجموع المسلحين إلى المدن أكانوا يكونون في المستوى الذي نريده لشعبنا، مستوى التربية الخلقية التي نريدها لشعبنا، قبائله وأفراده. قررنا ألا نخسر الحرب من الداخل، لأننا نعرف الناس بمستوى القبائل التي تقودها في الحرب.

- ألا تأتي التربية بالممارسة ؟

- في أمد بعيد. وفي زمن السلم لا الحرب. وفي وقت يكون فيه الشعب سيد نفسه، ليس وراءه جهاز خطير لدولة الاحتلال بكل ممكناتها.

وقفز فكر البطل كما لو كان استفزاز الذاكرة يزعجه :

- لا ننس أننا كنا في حرب شرسة مع عدو خطير لم يجد في أية جزء من الإمبراطورية ما وجده من مقاومة في بلادنا، لم ينعم بأي يوم من هدنة القتال، وما يزال. المدن والسهول والجبال : الأطلس والريف والصحراء. وهو يقاتل بغير أبنائه، أبناء الإمبراطورية البيضاء والسمراء يضعهم في مقدمة صفوف النار. ولو دخلنا المدن لاصطدمنا بحرب الشوارع مع جيش المرتزقة ولدمرت المدن على سكانها قبل أن نخرجهم أو يخرجوننا منها.

- (أضاف وهو يفكر بأسى) : فكرنا طويلا وانتهينا إلى التصرف بحكمة. ألم تسمعي عن المدن المفتوحة (العواصم الكبرى) في الحروب العالمية. ألم تعرفي ما حل ببعض المدن التي احتلها في الحرب العظمى هذا الجيش أو ذاك، ثم استرجعها هذا أو ذاك من المتحاربين، حتى أصبحت خمرا بعد عين. ما نريد لبلادنا أن تنهك بالحرب. العدو لا يحارب في بلاده. ولعله كان يدك مدينة فاس على سكانها ومحرريها دون أن تطرف له عين.

واستيقظت الذاكرة في قليل من الحدة :

- هل كنت تنجح في بلاد متخلفة ؟ ألم تقم معادلة بين الذين يحاربونك وبين من تحارب بهم ؟

فكر البطل قليلا وهو يشعر بأن ذاكرته الحية نكأت جرحا بعيد الغور :

كنت أريد قبل أن أخوض المعركة العسكرية أن أخوض معركة مدنية، فكرية، إصلاحية. لم تغب عن ذهني الأسباب التي أوقعت المغرب في ذل الحماية والاحتلال، كما أوقعت بلادا أخرى من العالم الإسلامي، إنه التخلف، كنت أريد أن أصلح المجتمع ليكون متأهباً لخوض معركة التحرير. مجتمع تطحنه الغفلة والدم المسفوح بين القبائل، والثأر، والعداوة بين قبيلتين، من أجل بقرة من إحدى القبائل رعت في أرض قبيلة أخرى، وكان التعصب الديني يفتك بعقول بعض الفقهاء والمتعلمين... (نطق الكلمة ساخرا) حتى إنهم يردون المجتمع إلى الوراء، مئات السنين. كان العرف هو الذي يتحكم بين القبائل بدلا من الشريعة، حاولت إقامة صلح بين القبائل، منعت الثأر، وأنا أهدد كل من يثأر بالقتل، فرضت الشريعة الإسلامية بتطبيق عقلاني، صالحت بين بعض القبائل لتكون جميعها قوة في المعركة، ولكن...

والحت الذاكرة تطلعا إلى ما وراء ! ولكن..

- ... ولكني أذكر بمرارة أن التعصب الديني ظل في طريقي، وكان أحد أسباب هزيمتي. أتذكر بعض شيوخ الزوايا الذين كانوا في صف الاستعماريين، وكان بعضهم يصد القبائل التابعة لهم عن القتال، وحتى الشيخ الوزاني الذي كان لي معه تاريخ مرير كان يصد القبائل عن القتال ويحمي المفسدين... هل كان في مقدوري أن أنتظر حتى أصلح هذا المجتمع، وقبائل منه تعادي قبيلة قبل أن أبدا المعركة التحريرية ؟ لو كان الأمر لي لفعلت، ولكن العدو لم يقبل إلا الاحتلال والحرب وإذلال أهل الأرض التي احتلها. بدأونا بالقتال.

- هل وقعتم في فخ ؟

- نعم... ولا... لم يبق لنا خيار، بعد أن أصبحت البلاد معرضة للاحتلال والإذلال. ومع ذلك الحرب أدخلت الوعي إلى

عقول كثير من زعماء القبائل. غير أن النهاية كانت في يد : الخيانة، والتعصب الديني، وفي يد عقلية أخرى متمكنة من كثير من المغاربة : هم أسود إذا انتصروا، قطط إذا خايلتهم مخايل الهزيمة. العدو يعرف ذلك من تجربته في المدن والسهول والأطلس والصحراء...

هذا درس آخر يتعلمه الذين يحملون المشعل بعد نهاية حرب الريف.

الذاكرة لا تنسى :

- كثير من المغامرين الأجانب من اسبانيين وفرنسيين وانجليز ادعوا صداقتهم لك، كانوا يغامرون ويترددون على أجدير، ويزعمون خدمة مصلحة الريف وحربه ضد الاستعمار، كثيرون ينزعون الثقة منهم.

ضحك البطل وهو يستعرض الأحداث : تذكر الكثير من أسمائهم والجلسات الطويلة معهم، والآراء التي كانوا يدلون بها، ونشاطهم في شراء السلاح، وفي الوساطة مع الفرنسيين ومع الاسبانيين ومع الانجليز، تذكر أن بعضهم حضر جلسات المفاوضات من أجل السلام، انتفض وهو يضيف إلى ذكرياته : لم يخدعني ولاؤهم وصداقتهم. ولكني كنت متفتحا معهم. أبلغ الخصم الرأي الذي أريد تبليغه إليه عن طريقهم، ولو بمجرد حديث عابر مع أحدهم، إذا كان العدو يحسب نفسه ذكيا وهو يرسل لي جواسيسه، فقد كنت أكثر ذكاء، وأنا أسخر مخابراته لمصلحة حرب الريف، بعضهم كان فعلا ضد الحرب، ويسعى إلى السلام لمصلحة بلاده، ومصلحتها في أن يستقر احتلالها وسيادتها على المغرب، وحينما كنت استخدمهم لم أكن من الغفلة بحيث يسئ إلى عملهم كعملاء.

نبشت الذاكرة سماسرة المعادن الذين كانوا يفدون إلى

الريف من عهد الجيلالي (بوحمارة) والريسوني وحرب الريف. كان هدفهم أن يستثمروا معادن المغرب بأبخص ثمن، وباتفاق مع من يملك السلطة، طاف بفكر البطل طائف من هؤلاء السماسرة. تذكر حيلهم، والدهاء الذي يتمتع به السماسرة والمتاجرون والمستثمرون.

- أي نعم الدول الطامعة جميعها، لا تهتها الحرب والهدف من الصراع ضد الاستعمار، وهو الاستقلال. يهمها ما تحفل به أرض الريف من معادن، قد لا يهم بعض المستغلين ورجال الأعمال من الحرب انهزام اسبانيا أو فرنسا أو الريف، ولكن تهمهم السيطرة على معادن الريف. لو استطاعوا أن يحصلوا على استغلالها والحرب قائمة لفعلوا - بعضهم كان يوغل في ذلك، ولو أنه يتمنى انهزام الريف لصالح اسبانيا أو فرنسا، ويهمه أن يحقق في زمن الحرب ما يصعب عليه تحقيقه في زمن السلم. أنا نيون انتفاعيون... لا يلامون، لان مهمتهم هي

تحقيق المنفعة لدولهم. كنت أداريهم، أعاملهم بالحسنى، وفي نيتي ألا أمكنهم من مثقال ذرة من تراب الريف إلا لمصلحة الدولة، وبعد نهاية الحرب. ولكني أرضى طمعهم بما يرضيهم من وعود. أعرف أنهم جواسيس يقومون بمهمة مزدوجة، ولكني كمناضل في قلب المعركة لا يجوز لي أن أضيف إلى أعدائي العسكريين عدوا آخر، ولو جاءني في صفة مسالم. الحرب خدعة...

كنت أعرف جيدا مطامع الأجانب في مناجم الريف، وأعرف أن أحد «الأمراء» الكونت دو روما أسس شركة مناجم الريف في عهد الاستقلال أي قبل الحماية بسنوات.

- لست أنا الذي وضع السلاح. وما غلب المجاهدون معي من جبن وانكسار وغلبة. ولكن العدو تفوق. وكان من أسباب تفوقه سلاح الجبناء، والتخلي عن الحضارة. العالم عرف، نضج

المتحضرون مما عرفوا : عرفوا أن الأجهزة العسكرية الاسبانية لجأت إلى السلاح المحرم دوليا : الغازات السامة. سلاح كان يرش بالطائرات على شعب الريف : مدنيين وعسكريين، نساء وأطفالا... كان يقضي على القرية، والقرى الكثيرة، سكانها، والحيوانات التي ترعى فيها، والزراعة والأعشاب التي تنبت فيها والأشجار التي تغرس فيها، ويسمم الماء الذي ينحدر من جبالها وينبع من عيونها أو يجري في أنهارها. الغازات السامة تترك الأرض بلقعا : لا إنسان ولا حيوان ولا ماء ولا نبات. تفتك بالذين أصابتهم برشاشها، وتنشر الأمراض الفتاكة بين الذين لم يستنشقوا سمومها، وتبقى الأمراض القاتلة (السرطان مثلا) التي تنتابها متوارثة إلى الأبد.

هذا هو سلاح المنهزمين الجبناء، استعملوه ضدنا فكان فتاكا ساعد على الأزمة التي عشناها، والنتيجة التي وصلنا إليها.

كنا نقاتل لتحرير بلادنا بسلاح مشروع، أغلبه غنمناه منهم، وكانوا يحاربوننا بسلاح ممنوع دوليا استوردوه من دولة أوروبية أخرى، لم تقف منا موقف عداء ولا تأييد، ولكنها تجارة الموت تتاجر فيها الشركات والدول التي تستهين بكرامة القوانين الدولية، فأحرى الأخلاق الإنسانية. إنهم جبناء منهزمون وكثيرا ما يحقق الجبان المنهزم أهدافه بأساليب غير إنسانية ولا مشروعة.

ولا ننسى أن بعض القبائل خانت فانسحبت من القتال، وأحتلت معظم المناطق حتى عاصمة الريف بكل سكانها وما فيها من وثائق، وما في أراضيها من مخازن سلاح، كنت أخيرا بين أمرين : الاستسلام أو الاستشهاد في بلاط الشهداء، ما ضننت بروحي في سبيل بلادي. ولكني فضلت الاحتفاظ بروحي من

أجل بلادي ثم من أجل من بقي يحمل السلاح من المجاهدين، ومن أجل عائلتي كذلك. فكرت دائما في أنني لا أحارب أحارب من أجل الحاضر. أعرف جيدا. أعرف الفترة التي يعيش فيها العالم، فترة تنمر الاستعمار، وتحالف العالم الغربي مع كل دولة استعمارية تحارب ضد شعب مستضعف أو مسلم. نبعد عن فكرنا دائما الصراع الديني. ولكنها الحروب الصليبية لم تضع بعد السلاح.

- أما كان الاستشهاد في حرب صليبية أفضل عند الله من الاستسلام لعدو منتقم ؟

- الحق لا يناقش، كان الأفضل لي ولمجد انتصارات السنوات الخمس ألا أكون هنا في سجن على البحر ينقلني إلى سجن على البر. ولكني وقد فكرت في مستقبل بلادي لم أيأس في أن

ألعب دورا كبيرا - وأنا منفي مرجوة عودته ولو بأفكاره - أو من أن تنبعث طائفة من أمتي من أشلاء حرب الريف لتقوم بحرب مثلها أو مغايرة لها لتحرر البلاد، أومن بالمستقبل ولهذا اتقبل ما حملت نفسي عليه حتى انتهيت إلى ما انتهيت إليه.

- لم تكن مرتاحا وأنت تقوم بما قمت به ؟

- لو سئلت قبل ذلك بشهر، لو سئلت بعد الذي حدث بشهر لما تصورت أن أتقدم بكل شجاعة وصفاء نفس ونقاء ضمير إلى شريف وازاني أعرض عليه أن يحمل إلى أصدقائه من قواد جنود العدو أني قررت أن أسلم نفسي إلى دولتهم، واضعا ثقتي في نبل وشرف مقاتلين، ولو كانوا على ضلال. أذكر أن شريف وزان أصيب برعب وذهول. كان كريما رغم أنه كان في صف العدو سنوات القتال، قدر القرار الذي أدهشه وأربكه. وقام بدور

الوسيط الشريف، وهو يتنقل - وهو ينقل شروطي المتواضعة - للدولة التي وضعت نفسي تحت تصرفها.

- وكنت مرتاح النفس واثقا بتصرف الخصم أمامك ؟ كانت أزمة.

- وليست هزيمة والحكمة تقول : اشتدي أزمة تنفرجي

- أعرف أنهم كانوا يقدرون - السياسيون والمفكرون والعقلاء منهم - شرف الحرب التي قمنا بها. ضد عدو آخر اعتدى على سيادة الريفيين وأهان نبلاءهم. كانوا يعرفون أنهم ظلمونا يوم دخلوا معنا في حرب اكرهونا على خوض غمارها. يعرفون أننا كنا منذ اليوم الأول في الحرب معهم - مدافعين لا مهاجمين. ويعرف عقلاؤهم والسياسيون المفكرون منهم أنهم كانوا مساقين وراء القادة العسكريين،

ويوم يضع السياسيون مقاليدهم في يد العسكريين يخسرون المعركة - أخلاقيا - ولو ربحوها عسكريا.

سلمت نفسي مطمئن الضمير. برهنت التجربة أني جئت قبل وقتي. مهدت الطريق للذين سيأتون. المغرب شعب حي يتوالد فيه الأبطال والشجعان والمجاهدون والمقاومون. وكلهم يتخذون الدرس من حرب الريف. جسدت حرب الريف منفيا، كما جسدتها وأنا أحمل البندقية. الأشخاص ينفون ويموتون، الأعمال والأفكار لا تموت. أومن بأن الذين سيأتون سيحققون استقلال البلاد ووحدتها. استقامت أمامهم الطريق أو انحرفت. سيقتل منهم شهداء في الطريق. فالعدو ليس سهلا. ولكن سيصل آخرون.

أنا مؤمن بالله. مؤمن ببلادي متيقن - أو أكاد - أني سأشهد استقلال بلادي. كنت في منفاي أو أدركت حريتي.

يوم تستقل بلادي ستكون حرب الريف قد حققت هدفها الأكبر.